العرب
الأحد 2019/10/20
السنة 42 العدد 11503

تجارب نسوية عربية في التأسيس للخطاب النقدي

نازك الملائكة، فاطمة المرنيسي، ليلى أبو زيد، فريال غزول، نهاد صليحة

في هذا الملف، الذي ينشر بالاتفاق مع "الجديد" الشهرية الثقافية اللندنية، نقاد عرب من العراق ومصر والمغرب يتناولون من خلال بورتريهات وقراءات خمس تجارب في النقد النسوي في حقول متعددة، تؤرخ بمجملها لتطور علاقة المرأة بالنقد الفكري والأدبي في مصر والعراق والمغرب في الحقبة الممتدة من أواسط الخمسينات وحتى اللحظة الراهنة.

الشخصيات التي جرى تقديمها هي: نازك الملائكة في حقل النقد الشعري، فاطمة مرنيسي في علم الاجتماع والنقد النسوي، فريال الجبوري غزول في النقد الادبي وعلم السرديات والترجمة، وليلى أبو زيد في الادب الروائي وكتابة الرحلة في افق الآخر، ونهاد صليحة في التأسيس لنقد فني عربي من خلال تطوير ادوات الناقد المسرحي.

أما النقاد الذين عكسوا في مراياهم النقدية هذه التجارب النسوية الطليعية في الثقافة العربية الحديثة، فهم: عبد الله ابراهيم ونادية هناوي وعواد علي من العراق، محمود سعيد من مصر، وعبد النبي ذاكر من المغرب.

وفي الملف إلى جانب هذه المساهمات القيمة هناك دراسة للباحث العراقي حيدر سلامة تستطلع إمكان تجديد الخطاب النسوي العربي عبر اعتماد منهج الدراسات ما بعد الكولونيالية، أو خطاب ما بعد الاستعمار، وذلك من خلال تفكيك النصوص الفكرية والنقدية التي نشرت في ملف "الجديد" المنشور تحت عنوان "المراة ناقدة ومفكرة". إذ أن الباحث يرى أن "ثيمة المرأة المفكرة/المبدعة التي تم طرحها في الملف يمكن أن نعيد هيكلتها ضمن منجزات ومناهج النظرية ما بعد الكولونيالية. خاصة إذا تذكرنا هنا أن معظم مقالات العدد طرحت إشكالية تهميش النص النسوي الإبداعي، جراء سيطرة الهيمنة الذكورية وسطوتها. بمعنى آخر، إن ولادة «نظرية أدبية نسوية» بدا مستحيلا حسب معظم خلاصات المقالات في العدد، لأن النص النسوي المكتوب لا يمثل المرأة، بقدر ما يعكس إمبريالية علاقات القوة الذكورية الكامنة فيه. فإذا كانت نظرية ما بعد الكولونيالية تعيد إنتاج المجتمعات الإنسانية/أو تعمل على تشكيلها وصياغتها حسب أنماط معرفية وثقافية من خلال القوة الإمبريالية فإن النصوص النظرية/السردية للمرأة، تبقى محكومة بتمثل علاقات القوة والهيمنة للسلطة الذكورية".

بمعنى آخر، والكلام ما يزال للناقد سلامة فإن "النص الذكوري صار يمثل في بنيته التاريخية ما يعرف بـ«المعرفة التجريبية» أو إمكانية المعرفة التي تتحول إلى شكل من أشكال السلطة تعمل على إعادة تركيب النظام الثقافي الهوياتي للمرأة. إذن، إن الرجل أصبح هو الآخر بالنسبة إلى المرأة، بالضبط كما يمثل الآخر الغربي بالنسبة إلى الثقافة العربية".

الملف المنشور هنا يشكل إضافة ممتازة لثقافة التغيير وللوعي النقدي المعاصر بالقضايا والمشكلات الكبرى المتحكمة ببنية الثقافة العربية.

الغرب والذكورية يتبادلان المصالح وقهر المرأة

درست المرنيسي حالة النبي والنساء قديما وحاضر النساء في المجتمعات العربية

عبدالله إبراهيم
ناقد عراقي

في سياق تقويم التجربة الفكرية لفاطمة المرنيسي، لا بدّ من الإقرار بأنها ارتادت حقلا غير مسبوق في البحث الاجتماعي الخاص بعالم النساء في العالمين العربي والإسلامي، فأخلصتْ لموضوعها، وجمعت أطرافه، وحفرت فيه حفرا منهجيا قلّ نظيره، فلا أكادُ أجد لها مثيلا بين معاصريها من النساء والرجال، فقد أبحرت في التاريخ الاجتماعي للمرأة، وقلّبت صفحاته الغزيرة صفحة بعد صفحة بعين الباحث المدقّق الذي يصف موضوعه، ثم يستنطقه، ويعيد تأويله برؤية تستجيب لشروط العلوم الإنسانية الحديثة، ثم أنها طورت رؤية فكرية شاملة هدفت فيها إلى معالجة حال المجتمعات العربية والإسلامية، وتغيير موقع المرأة فيها، ومن هذه الناحية أعدّها مفكّرة وباحثة راديكالية بكل ما يحمله المصطلح من دلالة؛ فالراديكالية نعت يشمل كلّ مفكّر يتبنّى مبدأ التغيير الجذري في المجتمع الذي يعيش فيه.

عكفت المرنيسي على نقد بنية المجتمعات الإسلامية والعربية، ونقد الخطاب الداعم لمقوّماتها، فتوزّع عملها بين بحث استقصائي يُعنى برسم صورة المرأة في التاريخ، وتعبير تمثيلي عن صورتها كأنثى في مجتمع تقليدي. واشتبك البحث والتمثيل معا بهدف تعويم صورة مختبئة للمرأة في ثنايا التاريخ من جهة، والواقع من جهة أخرى، ففي كتابها "الخوف من الحداثة: الإسلام والديمقراطية" طوّرت حفرا أخّاذا في الجانب المغيّب من وعي الثقافة العربية، وبه فتحت كوّة على عالم المرأة الذي جرى إهماله عن قصد، وطُمر في طيّات النسيان، ومثاله الحريم بمعانيه الاجتماعية والدينية والسياسية.

وبحسب مقترح المرنيسي فلكي يقع تحوّل ما في بنية المجتمع التقليدي ينبغي أولا تغيير شروط العلاقة بين المرأة والرجل؛ فالحداثة، في جوهرها، تغيير في نمط العلاقات، والانتقال بها من التبعية إلى الشراكة، وكل محاولة تغفل ذلك مصيرها الفشل، ولهذا ثمة خوف من الحداثة لأنها تقوّض النمط التقليدي من العلاقات، وتقترح نمطا مختلفا. وبعبارة أخرى، فالنمط القديم للعلاقة بين المرأة والرجل مدعوم بتفسير ديني واجتماعي، فيما النمط الجديد لا ضامن له سوى الديمقراطية.

> انعطفت المرنيسي إلى دور النساء في حياة الرسول، بعيدا عن التجريد اللاهوتي الذي استقام في مرحلة لاحقة، وتصلّب حتى أزاح الدين من موقعه الحقيقي

ولكي تفتح سبل التغيير، ويقع الانتقال من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث، فمن اللازم أن يفسح الإسلام مكانا للديمقراطية، وبالمقابل فالديمقراطية ستحول دون شيوع التفسيرات المتعصبة للظاهرة الدينية، أي أنها ستوقف جموح اللاهوت المتطرّف الذي جرّد الإسلام من حقيقته التاريخية، ودفع به خارج الزمان والمكان، وجعل منه سيلا جارفا من المطلقات والمسلّمات، وما على المؤمنين غير الانصياع لمقولات لاهوتية لا صلة لها بالدين الحقيقي.

والحال هذه، فنزع اللاهوت عن الظاهرة الدينية سوف يعيدها إلى نبعها الأصلي باعتبارها تأملات تقويّة ذات أهداف أخلاقية واعتبارية غايتها التهذيب والإصلاح، لأن اللاهوت، وهو علم انتعش على حواشي الظاهرة الدينية، احتكره الرجال، وصاغوه طبقا لرؤاهم ومصالحهم، وفيه درجة عالية من التضامن الذكوري ضدّ النساء، وهو تضامن اتخذ شرعيته من تكييف خاص لبعض إيحاءات الظاهرة الدينية.

ولئن كان اللاهوت من نتائج ثقافات القرون الوسطى القائمة على السجال، واحتكار الحقائق، فإن العصر الحديث، الذي أحلّ النسبية في كل شيء، لم يعد بحاجة إلى فروض اللاهوت المجردة عن التاريخ.

الحداثة، إذن، ستجد نفسها في تعارض مع لاهوت ذي بطانة دينية، وتحرير العلاقات الاجتماعية من أنساقها الموروثة، سيجعل المجتمعات تقبل علاقات مغايرة، تحتلّ المرأة فيها مكانة حقيقة لا صلة لها بنوعها الجنسي، بل بدورها الاجتماعي.

وفي كتاب "الحريم السياسي: النبي والنساء" عوّمت المرنيسي حالة الرسول قبل هيمنة التصوّر الإقطاعي للإسلام، أي حالته العموميّة بوصفه فردا يتواصل مع أسرته في منأى عن الضخّ الأيديولوجي الذي ولّده الفكر الإسلامي المتأخّر، إذ لم يكن ثمة انفصال بين الفرد وعالمه، والرغبة، وهو قطاع النساء.

وقد توصلت المرنيسي إلى أن كلاً من الغرب والذكورية يتبادلان المصالح، ويقهران المرأة، وسلسلة الانهيارات المعاصرة في سلّم القيم، يراد بها الحيلولة دون تقبّل المرأة كآخر. وفي نهاية المطاف دُفعت المرأة إلى الحاشية ليجري تهميشها ككائن هامشي في إطار حياة مهملة، واتخذ وجودها معنى واحدا هو: جسد للذة والاستمتاع.

المرأة جسد يمكن أن يُقلّب على كل جوانبه، يُفحص باستيهام ذهني، وتُدرج تفاصيله في سياق الشبق اللغوي، ويُعاد إنتاجه كمادة دعائية من أجل استثارة رجولة خاملة، تعاني الإخفاق والانكسار في عالمها، فتبالغ في الادعاء الذكوري.

وبإزاء هذا الاختلال النفسي والاجتماعي، لا يقع توافق سليم بين الأجساد، هو توافق هشّ قوامه الاستباحة والاغتصاب والأنانية. والمرأة التي خصّتها المرنيسي بالبحث والاهتمام هي المرأة العربية، والمرأة المسلمة، التي سلخت حياتها في مجتمعات تقليدية خاضعة لأنساق متماثلة من القيم شبه الثابتة أو الثابتة، والتي يتصاعد فيها دور الأب الرمزي من الأسرة، وينتهي بالأمة، والتي تعتصم بهوية ثقافية ثابتة، وتخشى التغيير في بنيتها الاجتماعية، وتعتبره مهدّدا لقيمها الخاصة، وتفسّر كلّ تحديث على أنه مهدّد لهويتها الدينية وقيمها الأخلاقية، وتعيش دائما تحت طائلة التأثيم، فكل فعل، لكي يكتسب شرعيته ينبغي عليه أن يتطابق مع تقليد ما أو نص، فأمسى البحث عن المطابقة أهم من البحث عن الأفكار. بحثت المرنيسي في حاضر المجتمعات التقليدية، وفي ماضيها، وفي علاقاتها الاجتماعية، وفي تطلّعاتها المستقبلية، وانتهت إلى أنها مجتمعات ساكنة، تتحوّل المرأة فيها إلى حرباء متقلّبة، تُحجب وتُكشف، تُستبعد وتُستحضر في آن واحد؛ فخلف كل حجاب ثمة جسد يفجّره العنفوان، وصورة المرأة معقّدة في هذه المجتمعات، مرة يريدها الرجل رمادا، ومرة جمرا، يخفي كينونتها الإنسانية وراء حجب الإهمال والاستبعاد، لكنه يستدعيها وقت الرغبة والمتعة، العلاقة بين الاثنين محاطة بقلق مستفحل، ففي الوقت الذي يمارس فيه الرجل هذه الازدواجية، تستجيب المرأة للضغوط المتقاطعة التي تفرضها تقاليد شبه مغلقة صار هاجس بعثها مجدّدا أحد أكثر التحدّيات الثقافية حضورا في عصرنا، وتطلّعات تحررية مستعارة أنجزتها مجتمعات أخرى.

ومن الطبيعي أن تتلاعب هذه الأمواج العاصفة من التحيّزات الدينية والاجتماعية بالبنية الذهنية للمرأة، وتجعلها ترى ذاتها منعكسة في مرايا متعددة؛

فالجسد الأنثوي هو المرأة التي تنطبع عليها كل تلك التحيزات، فيظهر جسدا متخفّرا يدّعي العفة والطهارة والنقاء حيثما يكون في قبضة التقاليد المحافظة، لكنه في غيابها سرعان ما يستجيب للذة العرض والفرجة بوصفه سرّا مخبّأ يحتاج للظهور والكشف، والإعلان عن نفسه. وهذه التقلّبات المستمرّة في حجب الجسد وكشفه، طمرِه والإعلان عنه، منحه والبخل به.

تمزّق في كل لحظة مبدأ الاحترام الإنساني له، فهو جسد مُذلّ ومُهان، لكنه مبرمج اجتماعيا ليظهر على أنه معزّز ومكرّم.

اللوحة للفنانة علا الأيوبي

> عكفت المرنيسي على نقد بنية المجتمعات الإسلامية والعربية، ونقد الخطاب الداعم لمقوّماتها، فتوزّع عملها بين بحث استقصائي يُعنى برسم صورة المرأة في التاريخ، وتعبير تمثيلي عن صورتها كأنثى في مجتمع تقليدي

اللوحة للفنانة علا الأيوبي

تنشر مقالات الصفحات 11، 12، 13، 14 بالاتفاق مع مجلة «الجديد» اللندنية والنصوص كاملة على الموقع الإلكتروني